الفصل الرابع

الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطول العيش انسان ؟!

وهذا المعنى ، الذي عبر عنه الشاعر العربي بهذا البيت ، هو الذي نجده عند ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) ، في فلسفة التاريخ والعمران ، عندما يتحدث عن دورات الدول والحضارات ، ولادة ، فشبابا ، فترفا وشيخوخة واضمحلالا . .

ثم . . ماذا حدث للأمة العربية ، وحضارتها ، ودولتها بعد أن صارع التيار « العقلاني ـ القومي » خصومها جميعا : الشعوبيين ، وأصحاب العصبية العربية الجاهلية ، وأصحاب الشرائع والملل والنحل غير الاسلامية ، فأحرز في صراعه هذا العديد من الانتصارات ، و« سك » لهذه الأمة « عملتها » الحضارية ، وعلى أحد وجهيها قسمتها القومية الواحدة ، وعلى الثاني الطابع العقلاني لحضارتها التي بلغت قمة التأثير والعطاء والازدهار ؟؟ . . ماذا حدث لهذه الأمة ، وحضارتها ، ودولتها بعد ذلك ؟؟ . .

نحن نعلم أن التيار « القومي ـ العقلاني » قد كسب جولة كبرى في صراعه مع الشعوبية والثنوية قبل عشر سنوات من انتهاء حكم هارون الرشيد ، بنكبة البرامكة (١٨٧ هـ ٨٠٣ م) . ومنذ ذلك التاريخ اقترب التيار « القومي ـ العقلاني » من الدولة وجهازها . . وفي عهد الخلفاء العباسيين

الثلاثة : المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) والمعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) بلغ التيار « القومي ـ العقلاني » مرحلة امتلاك قمة جهاز الدولة ـ فلقد كان هؤلاء الخلفاء على مذهب المعتزلة ـ فاستخدمه في نشر فكريته ومذهبه . . وشهد عصر هؤلاء الخلفاء قمة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، وأروع صفحاتها ، وانجزت فيه أعمال حضارية وفكرية أساسية ، آتت أكلها فيما بعد ذلك من السنوات . .

ونحن نعلم أن المعتزلة كانوا ، في النشأة والتطور ، تيارا سياسياً ، لهم جمهور واسع وعريض . . ولكن الاهتمام المتزايد بالمباحث العقلية ، وخاصة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية ، قد تحول بهم ، أكثر فأكثر ، إلى تيار فلسفي ، و« فلاسفة إلهيين » ، فغدوا ، بالقياس إلى « الجمهور » و« العامة » ، يمثلون « الاستقراطية الفكرية » إلى حد كبير . .

أما خصوم المعتزلة ، من الفقهاء وأهل التقليد ، ممن يقفون عند المأثورات وظواهر النصوص ، فإنهم كانوا أقرب إلى مستوى «العامة » وفكر « الجمهور » . . ومن هنا شعر المعتزلة ، رغم وجود السلطة في أيديهم ، بأن قوة خصومهم ، المستندة إلى « العامة » ، قد غدت تهدد سلطانهم الفكري وتعوق السيطرة المذهبية التي يريدون . . وبدلا من حل هذه المعضلة عن طريق حصر الجدل حول « الإلهيات » و« المقولات الفلسفية » في اطار « الخاصة » ، وافساح المجال لحرية الخلاف والاختلاف ، سعى فريق من المعتزلة إلى صبغ المجتمع كله بمذهبهم العقلاني المتقدم والمستنير ، واستخدموا لذلك : « العقل » و« السلطة » معا ؟ ! . . وعندما حدثت بعض التجاوزات ووقع بعض الاضطهاد على نفر من خصومهم ، وخاصة بصدد القول « بخلق القرآن » ، لجأ خصومهم إلى « العامة » ، واستنفروها للدفاع عن عقائدها الموروثة ومفاهيمها الشائعة وتصوراتها البسيطة ، ثم انتقلوا بها من مواقع الدفاع إلى مواقع التربص والهجوم . .

فمثلاً . . يشكو الجاحظ من قلة عدد العوام « في صفوف المعتزلة ،

وكثرتهم في معسكر الخصوم ! »[1] . . وينبه إلى أن خصوم المعتزلة ، من الفقهاء ، قد جمعت بينهم وبين العامة : النفرة من الفكر الفلسفي العقلاني المركب ، والاستنامة إلى ظواهر النصوص وتبسيط الأفكار وتسطيحها ، من مثل اختيار « التشبيه » بدلا من « التنزيه والتجريد » . . الخ . . الخ . . كما ينبه إلى أن هؤلاء الخصوم قد استهدفوا قيادة «العامة» واستخدامها في تحقيق طموحات سياسية ، فهم ـ بعبارته ـ قد « **أملوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، حتى تستوي لهم الرياسة على طغام الناس ورعاعهم !** »[2] . . وهو ، كذلك ، يحذر أعلام المعتزلة وعلماءها من الاغترار بكثرة « المهادنين والمسايرين » ، لأن ذلك لا يعدو خلق النفاق ومظاهره ، ولم ينقص من عدد الخصوم « فإن عدد الجماجم على حاله ! وضمير أكثرهم على ما كان عليه ، والذين ماتوا قليل من كثير ؟ ! ونحن لا ننتفع بالمنافق ! ولا نستعين بالمرتاب ، ولا نثق بالجانح ! وإن كانت المبادأة قد نقصت فإن القلوب أفسد ما كانت ! . . **وهم اليوم إلى المنازعة أميل ، وبها أكلف ؟ !** »[3] . .

وعندما وضحت للمعتزلة ، ودولتهم ، أن قيادة خصومهم للعامة تتدعم وتتأكد استشعروا الخطر « فالعوام إذا كانت نشرا ـ (متفرقة) ـ فأمرها أيسر ، ومدة هيجها أقصر ، فإذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وامام مقلد ، **فعند ذلك يموت الحق ، ويقتل المحق ؟ !** »[4] . .

وحتى لا « يموت الحق ، ولا يقتل المحق » ـ كما قال الجاحظ ـ ارتكبت المعتزلة ودولتها خطأها الأكبر ، فاستخدمت جهاز الدولة في محاولتها « اقناع » الخصوم بما لها من أفكار وآراء ! ! . .

وأمام القلاقل المنتظرة والسخط المتوقع والغضب الموشك على الانفجار ، من هذه الأزمة الداخلية في المجتمع ، سعت الدولة إلى زيادة الاعتماد على

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٧٣ .
(٢) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٣٣٩ .
(٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٢٦ .
(٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨٣ .

القـوة العسكريـة ـ الجيش ـ واتخذت الخـطوات إلى تنمية حجم هـذه الأداة من أدوات الحكم والسلطان .

وأيضا . . كانت الدولة العربية الاسلامية قد بلغت يومئذ أقصى حدودها في الانتشار والاتساع ، فبعد أن ملك العرب من الأنـدلس ، على حـدود فرنسـا الغربية ، حتى الحدود الغربية للصين ، شرعوا يهددون جنوب أوربـا وينتزعـون منها جزرها في البحر الأبيض المتوسط .

* ففي (١٩٥ هـ ٨٠٩ م) فتح العرب واحتلوا جزيرة « كورسيكا » . .

* وفي (١٩٦ هـ ٨١٠ م) فتحوا واحتلوا جزيرة « سردينيا » . .

* وفي (٢١٠ هـ ٨٢٥ م) فتحوا واحتلوا جزيرة « كريت » . .

* وفي (٢١٢ هـ ٨٢٧ م) بدأ فتحهم لجزيرة « صقلية » . .

* وفي (٢٥٦ هـ ٨٧٠ م) كان فتحهم واحتلالهم لجزيرة « مالطة » . .

* وفي تلك الحقبة تجاوزوا فتح الجزر وحروب البحر ، فاقتحموا الجنـوب الأوربـي في ايـطاليا ، ونـزلت جيوشهم (٢٣١ هـ ٨٤٦ م) بميناء « أوستيا » ، وهو المرفأ البحري لمدينة روما ، واستمر تهديدهم لها سنوات ثـلاث ، بكل مـا عناه ذلك من اقتحام المعقل الذي ظل طويلا مركز الخطر الرومـاني الذي احتـل الشـرق وأقام لنفسـه الدول بـالشمال الافـريقي ومصـر والشـام ، ثم استخـدم نصرانية الحبشة في محاولة القضاء عـلى البقعة العـربية التي افلتت من سيـطرته ، بمحاولته غزو مكة عام الفيل ، بعد أن احتلت اليمن ردحا طويلا من الزمان .

* وحتى بعـد انحسار هـذا التهديـد العـربي لـرومـا (٢٣٥هـ٨٤٩م) ، عادوا فحاولوا غزوها (٢٥٨هـ٨٧٢م) . . واستمر تهديدهم لها ولايطاليـا حتى (٣٠٤هـ٩١٦م) . . وأثنـاء تلك الفترة فـرضوا الجـزيـة عـلى رومـا ، وسجـل التاريخ أن البابا يـوحنا الثـامن (٨٧٢ ـ ٨٨٢م) ظل لعـامين ، يـدفع للعـرب

جزية سنوية مقدارها ٢٥،٠٠٠ رطل من الفضة ! . .[1] وبقدر ما كان ذلك مظهر بأس وعنوان قوة ، فلقد كان حملاً ثقيلاً على القلب ، جعل المركز والعاصمة وجهاز دولة الخلافة يحملون ما هو أزيد من الطاقة الطبيعية لهم ، وزاد من ثقل العبء أن الكثير من أطراف هذه الدولة لم تكن قد تعربت تماماً بعد ، ومن ثم فلم تكن « القومية الواحدة » بقسماتها الواحدة ولا « الحضارة الواحدة » بسماتها المتحدة قد غدت لهذه الأطراف خيوطا وشرايين تؤلف بينها وبين السلطة المركزية والقطاع الذي تعرب من البلاد ، فكان « جهاز الدولة » هو الرباط الوحيد بين القلب وهذه الأطراف ، الأمر الذي زاد الحمل ثقلاً على سلطة الخلافة المركزية في ذلك التاريخ .

ولذلك ، فلم يكن غريبا ـ وان استغربه البعض ـ أن تظهر في قمة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، وفي لحظات الذروة من تألق قسمتيها القومية والعقلانية ، أن تظهر واضحة ، بل ومحزنة : ظاهرة التجزئة والانقسام واستقلال الامارات والولايات عن السلطة المركزية ، وخاصة في الأقاصي والأطراف ! . .

فغير الأندلس التي استقل بها الامراء الامويون منذ أن تأسست الدولة العباسية في المشرق . . وغير قبرص التي استردها البيزنطيون قبل خمس وعشرين عاماً من نهاية القرن التاسع الميلادي ، انتشرت وتناثرت على خريطة أطراف الامبراطورية دويلات الأسر التي استقلت ، رسمياً أو عملياً ، بحكم العديد من الامارات ، من دون خلفاء بني العباس في بغداد . .

* فبنو ساج : في أذربيجان ومراغة وداغستان . .
* والأدارسة : في مراكش وغربي الجزائر . .
* والأغالبة : في شرقي الجزائر وتونس وطرابلس . .
* والبربر والتبو : في شمالي الصحراء الافريقية . .
* والنوبيون : في جنوب مصر . .
*والطولونيون : في مصر والحجاز وعسير والشام . .

(١) انظر في ذلك : فيليب حتي (تاريخ العرب) « المطول » طبعة بيروت سنة ١٩٥٣م .

* وبنو زياد : في زبيد . .
* وبنو يعفر : في صنعاء . .
* وبنو رس : في صعدة . .
* وبنو الجلندي : في عمان . .
* والزنج : في البصرة .
* والعلويون . . أبناء علي ـ الزيدية ـ في طبرستان . .
* والصفارية : في سجستان وأفغانستان . .
* والطاهرية : في مرو ونيسابور.
* وأحمد بن أسد : في ما وراء النهر . .
* والسامانيون : في بخارى . .

تجزئة وانشقاقات قاربت العشرين شهدها ذات القرن الذي شهد ذروة الازدهار العربية الاسلامية . .

وأمام هذا الخطر ، أيضاً ، وجدت دولة الخلافة نفسها مدفوعة إلى زيادة حجم القوة العسكرية ـ الجيش ـ فاتخذت في هذا السبيل خطوات وخطوات ! . .

وكانت الحضارة والرفاهية والإزدهار وطيب العيش ولين الحياة قد ابتعدت بالعنصر العربي الأول عن خشونة الجند التي عرف بها في عصر الفتوحات ، يوم أن كان العرب جيشاً ، وأشبه ما يكونون « بالاسبارطيين » ! . . كما أن أحلام الموالي ، ذوي الاتجاه الشعوبي، كانت لا تزال لبقاياها حياة ، الأمر الذي صرف الدولة عن أن يكونوا هم القوة الأساسية في الجيش الذي سعى الخليفة المعتصم إلى تكوينه كي يواجه به « أزمة القلب » وانسلاخ الأطراف وما خلفهما من مخاطر واحتمالات .

لقد كوّن المعتصم ، ضمن الجيش الذي أنشأه ، فرقة « الجند المغاربة » من موالي حوف مصر وحوف اليمن وحوف قيس . . وفرقة « الفراغنة » من أهل فرغانة . . وفرقة « الأشروسية » من أهل اشروسنة . . ولكنه سعى فارتكب

أعظم أخطاء الدولة في عصره عندما أخذ يكثر من شراء المماليك والأتراك ، ويقيم لهم المعسكرات ، ويجعلهم القوة الكبرى والرئيسية في جيش الدولة . . حتى لقد أقام لهم مدينة كاملة وجديدة هي « سامراء » ! . .[1]

لقد ظن المعتصم أنه باتخاذه الجند الغريب ، حضاريا وقوميا ، عن المجتمع ، سيحصل على أداة القمع الأسهل قيادا ، والتي لا أمل لها في السلطة ، ولا مصلحة لها في الصراعات الناشبة من حولها ، وانه بذلك سيقيم القوة الضاربة التي يحافظ بها على التوازن بين العرب والموالي وغيرهما من العناصر والأجناس المتصارعة والمتنافسة . . **ولكن تضخم هذه القوة العسكرية الجديدة سرعان ما جعلها مركز ثقل وقوة جذب ومصدر توجيه . . فالمدينة التي بنيت لها معسكرا تابعا للعاصمة بغداد تحولت منذ (٢٢١هـ٨٣٦م) إلى عاصمة للدولة ، انتقلت إليها الخلافة ، وأصبحت بغداد تابعة لها ! . . وهؤلاء الجند الذين أرادهم المعتصم قوة بيد الخلافة ، سرعان ما أصبحت الخلافة لعبة بيدهم ، يولون من أطاع ويعزلون من عصى ، بل ويسجنون ويقتلون من يتمرد على أوامر المماليك الأتراك ؟ ! . .**

وبسبب من أن هذه المؤسسة الجديدة والكبيرة هي : جند وجيش كانت بعيدة عن الاهتمامات الحضارية . . وبسبب من غربتها عن العروبة وتخلف قادتها ، بداهة ، عن نمط التفكير العقلي والفلسفي كانت أميل إلى « العامة » ، وأمعن في عدائها للفكر الفلسفي والآراء المستنيرة والتيار العقلاني . . وهكذا تحولت الأداة التي أرادها المعتصم حصنا للحضارة العقلانية ، ضد « العامة » ، تحولت إلى حصن للفكر المتخلف انطلقت منه « العامة » وفقهاؤها ليصيبوا ذلك المد الحضاري العقلاني بالتوقف ، فالجمود ، فالتراجع ، وذلك بمجرد استيلاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ٨٤٧ ٨٦١م) على السلطة ، بعد موت الخليفة الواثق ! . .

ولقد رضيت العامة ، وفقهاؤها من النصوصيين ، لقصر نظرها ، عن

---

(١) المسعودي (مروج الذهب) ج ٢ ص ٦٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ .

هذا الانقلاب . . ولكن سرعان ما أفاقت على صوت ناقوس الخطر الأشد . . فلقد استأثر الجند الأتراك بخيرات المجتمع المادية ، بعد أن أحكموا قبضتهم على سلطة الدولة السياسية . . وتركوا العامة وفقهاؤها يسعدون بزوال دولة المعتزلة وانحسار فكرها العقلاني ، ويتشفون في خصوم الأمس الذين أصبحوا رهن المنافي وغيابات السجون ! . .

لقد عم الاضطهاد ، منذ عهد المتوكل ، كلا من المعتزلة والعلويين ، ومن لم يوضع في السجن من قادتهم جرد من « حقوقه المدنية » ـ بلغة عصرنا ـ عندما أسقطت شهاداتهم أمام القضاء ، وسلبت حقوقهم الاقتصادية ، وأصابهم الكثير من التمييز في المراسم الاجتماعية والعلاقات الانسانية . .[1] وذلك فضلا عن تجريم فكر المعتزلة وتحريمه بمراسيم هي أشبه ماتكون بقرارات المجامع الكنسية الكهنوتية ، الغربية عن روح الاسلام ! . .[2] . .

وفي ظل هذا الاضطهاد كانت قيادات الدولة بيد رجال أسماؤهم من مثل : « وصيف » و « بغا » و « كيغلغ » و « ياجور » و « بايكباك » و « بكالبا » و « يارجوخ » و « أصغجون » و « طاشتمر » و « كنجور » و « تكين » و« أغرتمش » و « ابن كندا جيق » و « اساتكين » ؟ !. . واستأثرت هذه القيادة ، مع مماليكها وأعوانها باقطاعات الدولة وثرواتها ، دون العامة ، بل وزادت أثرتها فأستأثرت بهذه الثروة أحياناً دون عامة الجند والمماليك ؟ ! . .

ولقد تصاعدت سطوة قادة الجند الأتراك فبلغت الذروة عندما قتلوا الخليفة المتوكل في ٣ شوال سنة ٢٤٧هـ ١٠ ديسمبر سنة ٨٦١م) ، فأصبح منصب الخلافة لعبة مستباحة ، يتناولونها بالعزل والتولية ، وأيضاً بالسجن ، بل وبالسم والقتل لمن غضبوا منه أو عليه من الخلفاء ! . .

---

(١) انظر (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٦٧و : المقريزي (الخطط) ج ٣ ، ٢٧١ طبعة دار التحرير القاهرة .

(٢) آدم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) ج ١ ص٣٨١ ـ ٣٨٣ . ط . بيروت سنة ١٩٦٧ .

وبعد المتوكل ولي الخلافة المنتصر بالله ، محمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٧ ـ٢٤٨هـ ٨٦١ـ٨٦٢م) . . وكان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره ، ذا طموح لاستعادة سلطات الخليفة والعودة بالخلافة إلى سلطانها وسلطاتها . . وبعبارات المسعودي : « فلقد كان المنتصر واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغبا في الخير ، سخيا ، أديباً ، عفيفا وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق ، وكثرة الانصاف ، وحسن المعاشرة ، بما لم يسبقه خليفة إلى مثله ! . . »[1]

وكان المنتصر يدرك جيدا أن أية سلطة يرغب في استردادها لنفسه كخليفة لا بد من انتزاعها من بين قبضة قادة العسكر الأتراك ، وأنه ، لكي يصنع ذلك ، لا بد له من قوى بديلة يعتمد عليها ويستمد منها العون والتأييد . . فشرع يتقرب إلى العلويين ، ورفع عنهم مظاهر المحنة التي كانوا يعيشون فيها منذ انقلاب المتوكل ، فلم تعد زيارة قبر الحسين ، وغيره من مشاهدهم ، امرا محرما ، ورد اقطاع « فدك » ـ بالقرب من المدينة ـ إلى ذرية الحسن والحسين ، بعد أن كانوا قد حرموا منه ، واعاد أوقاف آل أبي طالب إلى ذويها . . واعلن في الناس ، عامة ، « الأمان » ! . . وحتى عندما انتصر جيشه على الخوارج الذين ثاروا وسيطروا على اليمن والبوازيج والموصل[2] ، وجاءوا إليه بقائد الخوارج ، أبو العمود الشاري ، أسيرا ، عفا عنه ، « وأخذ عليه العهد وخلى سبيله . . وقال : ان لذة العفو أعذب من لذة التشفي ، وأقبح أفعال المقتدر الانتقام ! » . .

وسار المنتصر ، في جمهور الناس ، سيرة العدل والانصاف ، فحقق الكثير من الأهداف التي ابتغاها من وراء هذا الانعطاف الجديد ، وبعبارة المسعودي ، فإنه « أظهر الانصاف في الرعية ، فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة ، مع شدة الهيبة منها له ! » . .

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٢٦ .

(٢) البوازيج بلد بالقرب من تكريت ، قريب من مصب نهر الزاب الأسفل .

ولقد بلغ من وضوح هذا التحول الذي أحدثه المنتصر إلى الحد الذي أصبح فيه موضوعا لمدائح الشيعة العلوية ، الذين كانوا بالأمس خصوما للخلافة وثوارا عليها . . وشاعرها يزيد بن محمد المهلبي يعبر عن ذلك عندما يخاطب المنتصر فيقول :

ولقد بررت الطالبية بعدما ... ذموا زمانا بعدها وزمانا
ورددت إلفة هاشم فرأيتهم ... بعد العداوة بينهم اخوانا
آنست ليلهم وجدت عليهم ... حتى نسوا الأحقاد والأضغانا
لو يعلم الأسلاف كيف بررتهم ... لرأوك أثقل من بها ميزانا

ولقد أراد المنتصر أن يستثمر تلك القوة التي حققها له «السلام» مع المعارضين والثوار ، والعدل مع الرعية في تحرير جهاز الدولة من استبداد قادة الجند الأتراك . . فطلب إلى « وصيف » ـ وهو أحد أثنين تركزت بأيديهما السلطة والسلطان ـ أن يترك العاصمة ، على رأس جيش ، لقتال الروم ! . . وأسرّ إلى خاصته أنه عازم على التخلص من قادة الجند الأتراك ، وعندما أبصر « بغا » ـ صنو « وصيف » وشريكه ـ يختال في قصر الخلافة ومن حوله الأتراك ، قال للفضل بن المأمون : « قتلني الله إن لم أقتلهم وأفرق جمعهم ![1] . . هؤلاء قتلة الخلفاء[2] ! . .

ولكن الأتراك عاجلوا الخليفة المنتصر قبل أن يعاجلهم . . وكما يقول المسعودي : « فلما نظرت الأتراك إلى ما يفعل بهم ، وما قد عزم عليه ، وجدوا منه الفرصة » بأن أوعزوا إلى طبيبه (الطيفوري) فقتله باستخدام مشرط مسموم في اجراء « حجامة » له ، فلقي مصير المتوكل في ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ بعد ، خلافة لم تتعد ستة أشهر؟[3].

وبعد التخلص من المنتصر ، أجلس الأتراك على عرش الخلافة خليفة

---

(١)(مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٢٦ ـ ٤٢٨ .
(٢) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٢٥٢ .
(٣) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٢٢٦ .

ضعيفا مستسلما هو المستعين بالله ، أحمد بن محمد بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ ٨٦٢ ـ٨٦٦ م) واستعادوا تحت رايته ما حاول المنتصر أن ينتزع منهم من السلطة والسلطان ، حتى لقد وصف الشاعر الخليفة المستعين ، وصور مكانه بين « وصيف » و « بغا » فأجاد عندما قال :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما يقول الببغا !

ولقد امتدت يد الأتراك بالاضطهاد ، قتلا ونفيا وسجنا وحرمانا ، إلى حاشية الخليفة السابق ، المنتصر ، وتصاعدت مظالمهم وزاد استبدادهم بالخلفاء . . فلم يكفهم ما اظهره الخليفة المستعين من ضعف وخضوع ، فخلعوه ، ثم قتلوه فشاع في الناس رعب وفزع ، عبر عنهما الشاعر البحتري (٢٠٦ ـ ٢٨٤هـ٨٢١ ـ ٨٩٨ م) عندما قال :

لله در عصابة تركية ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسما وأمامنا فيه شبيه الضيف ![1]

فالملك قد إقتسمه كل من « وصيف » و « بغا » ، أما نصيب الخليفة (الإمام) فهو نصيب الضيف ! . . أما الرعية فنصيبها الرعب والفزع والحرمان ! . .

وبعد المستعين تولى الخلافة : المعتز بالله ، الزبير بن جعفر المتوكل (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م) فكان مصيره نفس مصير المستعين ، خلعوه، وسجنوه ، ثم قتلوه في سجنه بعد خلعه بستة أيام ! . . وقال الشعراء في رثائه ، ضمن ما قالوا :

أصبح الترك مالكي الأمر والعا لم ما بين سامع ومطيع ![2]

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٣٣ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ .
(٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٥٧ ، ٤٦١ .

وبعد المعتز ولي الخلافة : المهتدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ ـ ٨٦٩ ـ ٨٧٠م) فراودته مطامح التغيير والعدل التي راودت الخليفة المنتصر ، بل لقد تطلع إلى أن يكون في بني العباس كما كان عمر بن عبد العزيز (٦٢ ـ ١٠١هـ ـ ٦٨١ ـ ٧٢٠م) في بني أمية ! وقال لخاصة أقربائه : « يا بني هاشم ، دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية ! » . .

لكن عمر بن عبد العزيز قد سلك مسلكه بالتغيير الجذري العميق ، على حين كان المهتدي أسير الاستبداد الذي جعل السلطة حكراً على قادة الجند الأتراك . . ولقد جادلوه ، محذرين اياه من السعي في هذا السبيل ، لأنهم وجنودهم لا يرغبون في العدل ولا يبيحون لأحد السعي نحو تحقيقه ! . . ودار بينهم وبينه حوار بدأوه متسائلين :

ـ أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟ ! .

ـ أريد أن أحملهم على سيرة الرسول وأهل بيته والخلفاء الراشدين !

ـ ان الرسول كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة ، كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم ، وانت إنما رجالك ما بين تركي وخزري وفرغاني ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم ، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة »[1] . .

ولما استشعر الناس بما يبيت قادة الأتراك ضد المهتدي حاولوا الحركة لمساندة الخليفة الراغب في العدل والتغيير ، وكان توزيع الرقاع ـ (المنشورات) ـ الداعية لمساندة الخليفة واحد من مظاهر حركتهم هذه ، وفي واحد من هذه المنشورات التي وزعت عندما شرع الأتراك في خلعه وتعذيبه كتبوا :

بسم الله الرحمن الرحيم. يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٦٦ ، ٤٦٣ .

الرضي ، المضاهي لعمر بن الخطاب ، أن ينصره على عدوه ، ويكفيه مؤنة ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ، فان الموالي قد أخذوه بأن يخلع نفسه ، وهو يعذب منذ أيام . . رحم الله من أخلص النية ، **ودعا وصلى على محمد ، صلى الله عليه وسلم !** » . .

بل ان قطاعا كبيراً من عامة الجند قد حاولوا الدفاع عن الخليفة المهتدي ، ضد قادتهم الذين استأثروا ، دونهم ، بالعطاءات والاقطاعات ، ووجه هؤلاء الجنود رسالة إلى المهتدي شكوا فيها سوء حالهم ، وتأخر أرزاقهم ، وما صار من الاقطاعات إلى قوادهم التي أجحفت بالضياع والخراج ، وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين استغرقوا أكثر أموال الخراج ! . .

ثم تجمهروا وتقدموا بمطالبهم :

* رد السلطة للخليفة .

* ورد رسومهم إلى ما كانت عليه أيام المستعين بالله .

* ووضع نظام جديد لتنظيمهم .

* واسقاط أنصبة النساء والزيادات والمعاون من عطاء القواد.

* وأن لا يدخل الموالي في سلك « الملتزمين » ـ (القبالات) ـ أي الوسطاء بين الدولة والفلاحين ، وكانوا بمثابة الاقطاعيين .

* وأن يكون عطاء الجند كل شهرين .

* وابطال الاقطاعات التي منحت للقواد . .[1]

لكن قادة الترك نجحوا ، فأوقفوا تحرك العامة ، واحتووا حركة الجند وتجمهرهم . . ثم قتلوا الخليفة المهتدي بالله بعد خلافة لم تتعد أحد عشر شهراً ؟ ! .

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٦ .

على هذا النحو كانت حال الدولة . . وإلى هذا الحد بلغ تجبر قادة الأعاجم الأتراك . . لقد سدوا على الخلفاء المصلحين مسالك الاصلاح ، واغلقوا السبل أمام كل من راودته آمال الاصلاح من خلال جهاز الدولة ، بعد أن سيطروا عليه السيطرة كلها واستبدوا بشؤونه كل الاستبداد ! . .

وعندما اغلقت الأبواب أمام الاصلاح ودعاته فتحت السبل الكثيرة أمام الثورة والثوار ؟ ! . . لقد بدأت ساحات المجتمع وأقاليمه تشهد ، منذ تخلص الأتراك من الخليفة المنتصر ، اندلاع الانتفاضات والتمردات والثورات التي قادها ، على وجه الخصوص ، ثوار علويون . .

* ففي سنة ٢٤٨ هـ ثار ، بالكوفة ، أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى ابن الحسين بن عبد الله ابن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

* وفي سنة ٢٤٩ هـ بدأت الجولة الأولى للثورة التي قادها علي بن محمد ـ ثورة الزنج ـ والتي استمرت حتى سنة ٢٧٠ هـ .

* وفي سنة ٢٥٠ هـ ثار ، بطبرستان ، الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وامتدت ثورته إلى جرجان ، واستقرت دولته بهما حتى سنة ٢٧٠ هـ .

* وفي سنة ٢٥٠ ثار ، بالري ، محمد بن جعفر بن الحسن ، كي يضم « الري » إلى الدولة العلوية التي تأسست بطبرستان . .

* وبعد فشل ثورة الري ، التي تزعمها محمد بن جعفر بن الحسن ، ثار بها ، ثانية ، أحمد بن عيسى بن علي بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب . .

* وفي سنة ٢٥٠ هـ ثار ، بقزوين ، الكركي (الحسن بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب . .)

* وفي سنة ٢٥٠ هـ ، ثار ، بالكوفة ، الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب . .

ولقد أدى اندلاع هذه الثورات ، من جانب ، وانتشار ظاهرة التجزئة

والاقليمية وانسلاخ الولايات والأقاليم عن الخلافة المركزية من جانب آخر ، إلى ضعف الحركة التجارية الداخلية ، والدولية التي تتخذ المنطقة طريقا لها ، الأمر الذي اضعف قواها الاجتماعية ، التي كانت تاريخيا ، وبحكم المصالح والاستنارة واتساع الأفق ، طليعة القوى العاملة على وحدة الدولة واستكمال قسمات الشخصية القومية لرعيتها ، فترك ذلك آثاره السلبية على المد القومي ، وتحول بخطه البياني من حركة الصعود إلى حركة الهبوط . . ونفس الشيء قد حدث مع القسمة العقلانية للحضارة العربية الاسلامية ، ففي ظل دولة العسكر الأتراك ، الغريبة عن روح القومية العربية ، انتكس الطابع العقلاني مع انتكاسة الوجه الثاني للعملة ، وهو الطابع القومي . . فبدأت بذلك مرحلة التوقف ، فالجمود ، فالتراجع للحضارة العربية الاسلامية ، وانفتحت في جبهتها الثغرات التي أغرت بها أعداءها التاريخيين التقليديين . .

ومر قرنان من الزمان ـ الرابع والخامس الهجريين ـ العاشر والحادي عشر الميلاديين ـ قبل أن تبدأ ثانية الغزوات الخطيرة والطويلة والعنيفة التي شنها الغرب الأوربي على الوطن العربي ، تحت شعارات المسيح وأعلام الصليب . . وفي هذين القرنين كانت بعض الدويلات الاقليمية ـ والعربية منها بخاصة ـ قد عوضت ، بقوتها وطابعها القومي وعمقها الحضاري وقسمتها العقلانية ، بعض ما افتقدته الامة نتيجة ما أصاب السلطة المركزية في بغداد من ضعف وعجمة وتخلف وجمود بلغ ذروته عندما خضعت هذه السلطة ، واقعياً وعملياً ، وحتى رسمياً ، لتسلط دويلات انفصالية ، مثل البويهيين (٣٣٤ هـ ٩٤٥م) والسلاجقة (٤٤٧ هـ ١٠٥٥م) . . وفي مقدمة هذه الدول العربية التي أبطأت بدخول الحضارة العربية الاسلامية دور الانحطاط ، وناوشت الغزاة المتأهبين فأجلت اجتياحهم لقلب الوطن العربي : الدولة الفاطمية (٢٩٧ ـ ٥٦٧ هـ ٩٠٩ ـ ١١٧١م) والدولة الحمدانية (٣٣٣ ـ ٤٠٦ هـ ٩٤٤ ـ ١٠١٥م) في الشام . . لكن هذا الأمر كان في اطار التأجيل والابطاء ، لا في اطار التجديد والانبعاث الذي يعيد الخط البياني لظاهرة الحضارة العربية الاسلامية ودولتها من الهبوط إلى الصعود ، والصعود المستمر . . لأن الدولة الحمدانية لم تعد أن تكون

امارة صغيرة وقفت بها طاقاتها عند حدود الصحوة الفكرية القومية ، ومناوشة البيزنطيين واستنزافهم وتأخير اجتياحهم للشام . . أما الفاطميون ، فرغم امكاناتهم العظيمة ، وانجازاتهم الكبيرة ، والطابع القومي والعقلاني لتجربتهم ، الا أن مذهبهم الشيعي قد جعل اجتماع الأمة ـ وأغلبها سنية المذهب ـ حولهم أمراً بعيد الاحتمال . . وهكذا كان الفاطميون والحمدانيون ، ودويلات أخرى لعبت أدواراً مشابهة وقريبة ، بمثابة الصحوة التي تسبق الاحتضار ! . .

وفي هذه الصحوة واصل السلاجقة (٤٧٠ ـ ٧٢٨ هـ ١٠٧٧ ـ ١٣٢٧م) مهمة الحمدانيين في قتال البيزنطيين ، وأحرزوا انتصارا كبيراً ضدهم في معركة « منزكرت » ـ (ملاذكرد) ـ (٤٦٣ هـ ١٠٧١م) وأسروا يومها الامبراطور البيزنطي «رومانوس ديوجنس» ١٠٦٨ ـ١٠٧١م). . كما عاد الفاطميون فواصلوا تهديد ايطاليا ، بعد أن اتخذوا من « صقلية » (٣٠٤ هـ ٩١٧م) قاعدة لهجماتهم البحرية ضد الشواطىء الجنوبية لأوربا ، فوصلت حملاتهم إلى « البندقية » و« جنوى » (٣٢٣ هـ ٩٣٥ م).

ووجدت أوربا ، وعلى رأسها البابا والكنيسة الكاثوليكية ، انهم أمام خطر ذي شعبتين : مناوشات حربية وغزوات بحرية متقطعة . . وهم قد أفلحوا في صدها . . ولكن الذي لم يفلحوا في صده كان ذلك الخطر المتمثل في الفكر العربي الاسلامي العقلاني والمستنير . . فلقد كانت الدوائر الكنسية الكاثوليكية في أوربا ـ وهي وحدها دوائر الفكر والثقافة هناك ـ تقيم أمنع الحواجز ضد ما كانت تزخر به المنطقة العربية من علوم وفنون وأفكار ونظريات . . كانت اوربا تعيش قمة ظلام عصورها المظلمة على حين كانت القاهرة تنعم بأضخم مكتبة عرفتها عواصم تلك القرون ، وبدور الحكمة والمراصد والفكر العقلاني والجدل النظري الذي يعلي من قدر العقل فيحقق المعنى الحقيقي لانسانية الانسان . .

ولكن هذه الدوائر الكنسية ، التي افلحت في صد جيوش العرب الغازية ، قد اخفقت في تحصين العقل الأوربي ضد الفكر العربي ، فحدثت وعملت عملها قوانين تلك « السنة » الكونية التي تكررت على مر العصور :

تحدث الصراعات المسلحة وتنتهي ، وتنجح الحملات الحربية وتخفق ، وتقوم الدول وتضمحل . . ولكن الأبقى والأدوم والأفعل هو ، دائماً وأبدا ، التأثيرات الفكرية والحضارية التي تستفيدها الأمم والشعوب من خلال عنف هذه الصراعات ! . . ولذلك فان التاريخ يسجل أن النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي هو الذي شهد طلائع التأثير الأوربي بالفكر العربي ، وهو التأثر الذي أصبح المنطلق الحقيقي الذي انطلقت منه أوربا ، عبر قرون عدة وأحداث كبرى ، إلى عصر النهضة والتنوير . .

* فقسطنطين الافريقي (المتوفي سنة ١٠٨٧م) هو الذي ارتاد حركة ايقاف الأوربيين على الثمار العقلية للحضارة العربية الاسلامية . . وهو مفكر طلائعي ، خلف وراءه أربعة وعشرين كتاباً . .

ولقد جاء قسطنطين الافريقي وفكره ومصنفاته ثمرة لعاملين رئيسيين :

أ ـ رحلته التعليمية والعلمية التي زار فيها كلا من : خراسان ، والهند ، وبغداد ، والشام ، ومصر ، والقيروان ، حيث درس وتعلم ووقف على البناء الفكري والحضاري العملاق .

ب ـ الدراسة والتخرج في أول مدرسة طبية قامت بايطاليا ، وهي مدرسة (سالرنو) التي تأسست في القرن التاسع الميلادي ، والتي كان تأسيسها بداية اسهام العرب المسلمين في ايقاظ أوربا ، عن غير طريق الأندلس ، فلقد أسس هذه المدرسة ـ التي التحق بها قسطنطين الافريقي سنة ١٠٦٠م ـ أربعة رجال : لاتيني ، ويوناني ، ومسلم ، ويهودي ! . فكانت أول مدرسة خارج الاندلس تعلم الناس الطب في أوربا .

* وفي تلك الفترة اقتحمت علوم العرب على الايطاليين أسوار جامعة « بولونيا » ، فبدأت عنايتها بهذه العلوم سنة ١٠٧٦م . .

ووجدت الرجعية الكنسية في أوربا نفسها ودولتها مهددة بخطر عظيم . . فالجيوش العربية تترى على ايطاليا وتهدد روما ذاتها . . والفكر

العربي ، العقلاني والمستنير ، يقتحم الأسوار التي فرضتها على العقل الأوربي لعدة قرون ، وهو يفعل ذلك من الأندلس ، غربا ، ومن الجزر التي احتلها العرب في البحر المتوسط تجاه الشاطىء الجنوبي . . ولاح في الأفق أن روما وأوربا تواجه المأزق الذي واجهته مكة يوم أن زحف عليها الأحباش لاحتوائها عام غزوة الفيل . . ويومئذ استجمعت الكنيسة ما لديها من طاقات ، وشحذت ما في جعبتها من أسلحة واستنهضت اوربا الاقطاعية لانتهاز الفرصة ، ومواجهة العرب ، قبل أن تتحول الصحوة التي يعيشونها إلى نهضة تتجدد بها حضارتهم إذا هم أطبقوا على ما بين آسيا الصغرى والأندلس ، وحولوا البحر المتوسط إلى بحيرة عربية ، واقتلعوا الخطر التاريخي الذي احترف تهديدهم عبر تاريخهم الطويل . .

ومع ايماننا بأن صراعات الأمم والشعوب والحضارات لا تقف أسبابها عند ردود الأفعال ـ والذين يفسرونها هذا التفسير السطحي لا يبصرون ما في الأعماق ـ لكننا ، في ذات الوقت ، يجب أن نعطي اهتماماً كبيراً لما تولده المخاطر عندما تحيق بالأمم الأصيلة ذات الحضارة والتراث ، ما تولده هذه المخاطر من طاقات تجعل هذه الأمم ، التي تمتحنها هذه المخاطر ، تستجمع عناصر قوتها وتجدد شباب حياتها ، ثم تنهض لتحدي الخطر وكسر الطوق الملتف حول عنقها والمهدد لها بالفناء . .

ونحن نتخذ من هذا العامل نموذجا وسبيلا يعفينا من سرد أسباب كثيرة ، لا يتسع لها المقام ، وقفت خلف المد الأوربي الذي تمثل في الحروب الصليبية على الشرق العربي ، ذلك المد الذي أرادت به أوربا أن تسترجع ما تحرر من الشرق تحت رايات الاسلام . .

* فالجيوش العربية بأساطيلها قد حولت البحر المتوسط إلى بحيرة عربية خاصة وخالصة ، ثم هي قد شرعت تحتل وتهدد شاطئه الأوربي ، بعد أن استقرت في جزره الأوربية الكبرى . .

* والمدن التجارية الأوربية ـ وخاصة الايطالية منها ـ لم تحرم فقط من

امتيازاتها التقليدية في التجارة العالمية عبر طرقها الشرقية والعربية ، وإنما وطئت أرضها بأقدام الفاتحين العرب المسلمين . .

* والنمط الفكري المتخلف الذي سجنت فيه الكنيسة الكاثوليكية قارتها الأوربية قد سددت العقلانية العربية الاسلامية إليه السهام .

ومن هنا كان نهوض الكنيسة الكاثوليكية ، خاصة في عهد البابا الذهبي اربانيوس الثاني (١٠٤٢ - ١٠٩٩م) لقيادةأوربا في زحف تاريخي بربري استهدفت من ورائه ، لا هزيمة العسكرية العربية فحسب ، بل واطفاء المنارات الفكرية العقلانية التي ترسل الضوء المقض لمضاجعها من مراكز البحث ودور العلم والحكمة في ديار الاسلام . .

* فبدأت طلائع الحروب الصليبية على أرض الأندلس ، وسقطت « طليطلة » بيد الفونسو السادس (٤٧٨ هـ ١٠٨٥م) . .

* وبعد خمس سنوات سقطت « صقلية » بيد النورمان (٤٨٣ هـ ١٠٩٠م) . .

* وفي نفس التاريخ - (سنة ١٠٩٠م) سقطت « مالطة » . . وانحسر عنها الحكم العربي . .

* وفي (٤٨٨ هـ ١٠٩٥م) اكتمل للكنيسة تجميع عناصر قوتها : فالدعاة شحنوا العامة بمشاعر مجنونة عن الحرب المقدسة ضد المسلمين « الوثنيين » الذين يعبدون الحجر الأسود ويسجدون لمحمد ، ويدنسون مهد يسوع وقبره ؛ . . وفرسان الاقطاع الأوربي أطمعتهم الكنيسة بملك الشرق وخيراته إن هم وجهوا فروسيتهم وبأسهم لقتال المسلمين ، بدلاً من حروبهم المحلية التي لا تنتهي . . والمدن التجارية الأوربية قد تعهدت بتمويل الجيوش مقابل امتيازات التجارة الدولية التي حرمها العرب منها منذ أن توحد العرب تحت رايات الاسلام . .

ولقد دشنت الكنيسة نصرها الاستعدادي هذا في « المجمع » الذي عقدته

سنة ١٠٩٥م بمدينة « كليرمونت » بجنوبي فرنسا ، وهو المجمع الذي خطب فيه البابا الذهبي اربانيوس الثاني ، فخاطب فرسان الاقطاع الأوربي بقوله : « . . أنتم فرسان أقوياء ، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم . . ولكن ، تعالوا وحاربوا الكفار ـ (المسلمين) ـ : . . يا من تنابذتم اتحدوا . . يا من كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا ! . . تقدموا إلى بيت المقدس . . انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهي تدر سمناً وعسلاً ! . . انكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ! . . »

وشهدت العصور الوسطى أعجب وأبشع وأطول حملات الغزو والاستيطان التي عرفها ذلك التاريخ ، ففي خلالها قذفت أوربا أرض الشرق العربي بخمس وعشرين حملة حربية موَّلها التجار وقادها فرسان الاقطاع وزحف في ركابها الغوغاء ، وتضامنت في قذف الشرق بها الممالك والامارات والولايات . .

ولقد نجحت هذه الحملات حيناً، فكونت الدول والامارات الاستيطانية اللاتينية، بأرض الشام وفلسطين، حتى استطاعت ، زمناً، تحقيق الهدف الاستراتيجي للغزاة فشقت الوحدة الأرضية للوطن العربي وعزلت مشرقه عن مصر ـ القلب ـ والمغرب، بكياناتها التي احتلت الأرض الفلسطينية التي تصل ما بين البحر المتوسط وخليج العقبة ، ثم أخذت تهدد مصر ، حتى لقد فرضت الجزية عليها زمناً ، وأقامت لفرسانها مركزا على أبواب القاهرة وبيدهم مفاتيح لها ، مستغلين في ذلك ومستفيدين من صراعات وزراء الدولة الفاطمية على السلطة والسلطان !

نجحت هذه الحملات عندما نفذت إلى الوطن العربي من تلك الثغرة التي أفقدته التوازن الحضاري الضروري والمطلوب . . فالعرب قد نجحوا في التحرر من البيزنطيين ، بل وفي تهديد أوربا في مواطنها عندما امتلكوا : السيف والقلم ، ودان لهم : العقل والقوة ، ووظفت القوة طاقاتها في خدمة العقل . . فلما اعتمد العباسيون على القوة غير العربية ، وتكَّون الجيش من المماليك ، زال الانسجام بين العقل والقوة ، فتحولت القوة الضاربة ـ وهي

غير قومية ـ إلى قيد على العقل العربي ، فكانت السلطة العسكرية المحافظة فكريا والمستبدة سياسياً ، والتي أصابت المد الحضاري وعصره الذهبي بانتكاسة لم يتخلص العرب من آثارها حتى الآن . .

وعندما عالج الفاطميون بعض أسباب ذلك التحلل العباسي ، نجحوا بعض النجاحات ، خصوصاً عندما أقاموا في قلب الوطن العربي عاصمتهم ـ القاهرة ـ التي صارت القلب والقاعدة لوطن اكتملت في جناحيه عملية التعرب وتوحدت هويته الحضارية إلى حد بعيد . .

ولكن جيوش الفاطميين البدوية انعزلت عن الطابع الحضاري العقلاني الراقي الذي تمثل في الأزهر ودور الحكمة والمراصد والمكتبات . . فحدث الانفصام بين العقل وبين القوة ، وانشغلت القوة بصراعاتها القبلية ، الأمر الذي أفقد العقل درعه وحرم القلم سيفه ، فكانت الثغرة ـ ثغرة فقدان الحضارة العربية الاسلامية الطابع المتوازن الذي تميزت وامتازت به ـ التي نفذ منها الصليبيون عندما نجحوا في تحقيق ما حققوا من انتصارات . .

* * *

ولم تستطع ثياب الكهنة ولا أردية الرهبان ولا الصلبان التي حملها الفرسان الإقطاعيون أن تخفي المطامع الحقيقية ، والأسباب الموضوعية التي حركت أوربا الاستعمارية في هذه الحملات . .

فالذين حملوا انجيل ديانة السلام والتسامح والمحبة ، كتبوا هم أنفسهم إلى البابا الذهبي يباهون بالمجازر التي صنعوها بالعرب والمسلمين ، بعد دخولهم القدس ، فقالوا : « . . إذا أردت أن تعرف ما يجري لأعدائنا ، فثق انه في معبد سليمان ـ (جامع عمر بن الخطاب) ـ كانت خيولنا تغوص إلى ركبها في بحر من دماء الشرقيين ! » . . . . . والشرقيون هؤلاء كانوا هم العرب ، مسلمين ومسيحيين ! ! .

* وهذه الحرب التي صورتها الكنيسة على انها مهمة دينية مقدسة يبتغون بها وجه الله ورضاء يسوع ، تكشفت عن حرفة دمار هدفها المال ، وانجاز بربري

يبتغون من ورائه أرض العرب وخيرات الشرق الدنيوية . . ووفق كلمات أحد البطاركة الذي يقول عن غايات فرسان الاقطاع الأوربي من حملاتهم الحربية هذه ضد العرب : « . . فكثيرون من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لجمع الأموال الغنية ، بل أن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة ! . . »[1]

* وأرض الشرق التي وعد البابا الذهبي فرسانه بها ، وقال لهم عنها : إنها تدر سمناً وعسلاً ! . . بدأ هؤلاء الفرسان يوزعونها على أنفسهم اقطاعات ، حتى قبل أن تقع في أيديهم ممالك وامارات . . فعندما عزموا على غزو مصر ، « مسحوا » أرضها ، ووزعوها على الأمراء والفرسان . . وبعبارة المؤرخ « أبو شامة » (٥٩٦ ـ ٦٦٥ هـ) : « . . وكان ملكهم ـ لعنه الله ـ لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها ، وتعرف له خبر ارتفاعها ـ (دخلها) ـ وأحضر وزيره **وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته ـ (فرسانه) ـ وفرق قراها على اجناده** » ! . . »[2]

* والتمويل الذي قدمته مدن أوربا التجارية ـ خاصة : جنوه ، ونابلي ، وبيزا ، والبندقية ـ لهذه الحملات ، أخذت تسترد أضعاف أضعافه باحتكارها السيطرة على طرق التجارة ، وجلب الأرباح حتى من تجارة الأقاليم التي نجت من الاحتلال المباشر . . و « وغليوم الصوري » يصف ثراءهم من تجارة مصر فيقول : « كانت خزائن مصر تحت تصرفنا . . كما أن مواني أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا ، وتجارها كانوا ينقلون إلى مواني بلادنا غلات أراضيها ، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا . . وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام ! »[3] هكذا تكشفت المطامع عارية ، ولم تفلح في سترها

---

(١) مكيسموس مونروند (تاريخ الحروب المقدسة في المشرق) ج ١ ص ٨٠ ، ٨١ . ترجمة مكيسموس مظلوم . طبعة القدس سنة ١٨٦٥م .

(٢) ابو شامة (الروضتين في اخبار الدولتين : النورية والصلاحية) ج ١ ص ٣٤٠ ط . القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ .

(٢) (تاريخ الحروب المقدسة في الشرق) ج ٢ ص ٧٦ .

دعايات الكهنة ولا أردية الكهنوت . .

وأمام هذا الخطر المدمر والبربري لهذا الاستعمار الاستيطاني انتفض كيان الشرق العربي فأفرز عوامل القوة والمقاومة التي تصدت لفرسان الاقطاع الأوربي حتى هزمتهم وقذفت بهم وبكياناتهم الغربية إلى مواطنهم الأصلية . .

وخلف هذه الانتفاضة وفيها كان الفعل والتأثير لتلك القسمة التي ميزت شخصية الانسان العربي أمام المخاطر والتحديات ،وهي القسمة التي بلغت مبلغ القانون الذي حكم صراعاته ضد أعدائه . . **فهو يبصر سر تفوق الخصم ، ثم يسعى لامتلاك هذا السر ، فيضيف فاعليته وتأثيره إلى سلطان الحق المتمثل في عدالة قضيته . . وبذلك تجتمع لديه امكانيات النصر في هذه الصراعات** . .

ولقد كانت الفروسية الاقطاعية الأوربية في مقدمة أسباب التفوق الصليبي على العرب في ذلك الصراع . . فأوربا المتخلفة حضاريا كانت تمتلك مؤسسات للفروسية ، أفرزها عصرها الاقطاعي ، ورسخت تقاليدها في الحرب ، وبرزت وحشيتها في حملاتها ضد العرب والمسلمين . كان شرف الفروسية والفارس عندهم يتمثل في **الاخلاص والطاعة والشجاعة** . . وكانت أهدافها : **حماية السادة ، والكنيسة ، وقتال الكفار ـ (المسلمين) ـ ! ! . .** ولقد ساعدت الحروب الصليبية على اعلاء شأن الفارس والفروسية لدى أوربا في ذلك العصر، حتى لقد أصبح الفارس عندهم وفي مجتمعهم يمثل كل شيء وكل قيمة . . وبعبارة المؤرخ الناقد أسامة بن منقذ [٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ ١٠٩٥ ـ ١١٨٨م] وهو معاصر لتلك الأحداث ـ : **فان « الفرنج ـ خذلهم الله ـ ليس فيهم من فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان ، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم ! . . »**[1] .

ومن هنا صحت عزيمة الشرق ، في انتفاضة ضد هذا الخطر ، على امتلاك

---

(١) (الاعتبار) ص ٦٤ ، ٦٥ تحقيق : فيليب حتي . طبعة برنستون سنة ١٩٣٠م .

سلاح الفروسية واقامة مؤسساتها حتى يقهر بها خصومه ويجلي بواسطتها غزاتـه ، فلا يفل الحديد الا الحديد ! .

ولكن الشرق ذا الحضارة والتـراث الاسلامي لم يكن ، ومـا كان لـه ، أن يصنـع فـروسيتـه عـلى النمط الـوحشي الـذي ميـز فـروسيـة أمـراء أوربـا الاقطاعيين . . فهؤلاء ، كانوا نتـاج اقطاع أوربـا المظلمـة ، بينما كـان للشرق العربي والمسلم تراث في الفروسية تميز بالقيم النبيلة منذ أن ظهر فيه الاسلام . .

ومنـذ قرون كـانت قد استكنت في ضمـير هذه الأمـة القيم السـاميـة التي علّمها أبو بكر الصديق قـائد جيشـه يزيـد بن أبي سفيان عنـدما قـال له : « اني مـوصيك بعشـر : **لا تقتل امـرأة ، ولا صبيـا ، ولا كبيـرا ، ولا هـرماً**[1]**، ولا تقطعن شجرا مثمرا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لمأكلة ، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه ، ولا تغلل ـ (تخن) ـ ، ولا تجبن ! . . »** .

ولقـد تحول هـذا التراث الشـرقي في الفـروسيـة ، عنـد مـواجهـة الخـطر الصليبي ، الى الخصـال والسجـايـا العشـر التي أصبحت دستـور مؤسسـات الفـروسية الاسـلامية التي شـرع العرب في اقـامتها كي يـدفعوا بـواسطتهـا غزاة أوربـا الصليبيين .

فنشأت في الوطن العربي أنظمة للحكم كان قـوامها مؤسسـات الفروسيـة وعمادها الجيش الذي تكون في معسكراتها . . تلك المعسكـرات التي كان يجلب إليها المماليـك الصغار، حيث ينشأون نشأة حربية صرفـة وكاملة ، لاصلة بينهـا وبين حياة المدنيين بشواغلها ورفاهيتها ، ومع حياة الحرب وتدريباتها كانوا يتعلمون سجـايا الفـروسيـة العشـر : **التقـوى . . والشجـاعـة . . ورقـة الشمـائـل . . والصبـر . . ومراعـاة الجـوار . . والمروءة . . والكرم . . وحسن الضيـافـة . . ومساعدة النساء والأرامل . . والوفاء بالعهود** .

ولقد أصبحت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية هذه دولا ، ثم نمت من خلال دولها . . وكانت طلائعها هي الدولة الزنكية التي أسسها عمـاد الدين ابن محمـود زنكي (٥٢١ ـ ٥٤١ هـ ، ١١٢٧ ـ ١١٤٦م) بالمـوصـل (٥٢١ هـ

(١) الكبير : الطاعن في السن ، والهرم : هو من بلغ أقصى الكبر .

١١٢٧م) . . وبفرسانها بدأ الخط البياني في الصراع « العربي ـ الصليبي يتجه إلى صالح العرب والمسلمين . . فلقد أحرز هؤلاء الفرسان أولى الانتصارات العربية ضد الصليبيين عند « حضن الأثارب » ـ بين حلب وانطاكية ـ و« حصن حارم » ـ تجاه انطاكية ـ . . وفي عهد السلطان نور الدين الشهيد (٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ ـ ١١٤٦ ـ ١١٧٣ م) ـ الذي خلف عماد الدين ـ واصلت الدولة انتصاراتها ، فحررت إمارة « الرها » الصليبية ، ونقلت عاصمتها إلى حلب ، كي تكون على مشارف الأرض المحتلة ، واستطاعت تطويق الكيانات الصليبية من الشرق والشمال . .

وبمساعدة هذه الدولة هزمت مصر غزوات الجيش الصليبي أواخر الحكم الفاطمي ، وعندما انفرد جيشها ، وقائده صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م) بحكم مصر ، تم تطويق الكيانات الصليبية من الجنوب أيضاً ، ولم يبق امام هؤلاء الغزاة المستوطنين ، دون حصار ، سوى شاطىء البحر المتوسط ، الذي منه وفدوا غزاة لقلب الوطن العربي فلسطين . .

وعلى امتداد سنوات الحكم الأيوبي والمملوكي تواصلت المعارك التي حولت أرض الوطن العربي إلى بؤرة دائمة التفجر والغليان . . وتحولت أسماء قرى صغيرة وبقاع مجهولة إلى نجوم وشهب لمعت في صفحات التاريخ بما دار عليها وفيها من معارك وملاحم في هذا الصراع الحضاري والطويل . . وكما شاركت أوربا جمعاء في هذا الغزو فلقد أسهم العرب جميعاً في التصدي ، وامتدت ساحات اللقاء من « الرها » إلى « الكرك » إلى « حطين » و « القدس » و« عسقلان » و « الاسكندرية » و « المنصورة » و « دمياط » و « قلعة بانياس » الخ . . الخ . . كان الصليبيون يريدون اعادة امبراطورية الغرب التي أقامها الاسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق . م) بالشرق ، قبل الميلاد ، ويجاهدون لمحو الانتصار التحرري الذي أحرزه العرب بفتوحات الاسلام . . على حين كان العرب يواجهون التحدي بروح المدافع عن كيانه وبقائه امام الاستعمار الصليبي الاستيطاني . . وسيطرت على جو المعارك وسمائها علامات استفهام ، لدى الفريقين : نكون ؟ أو لا نكون ؟ ! . . وبلغة مؤرخ ، وشاهد

عيان ، هو ابن شداد (**٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ ١١٤٥ ـ ١٢٣٤**) : « **فلقد علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس ، معدومة النفس !** » . .

وبعد قرابة القرنين من الصراع المشتعل والمتواصل أخذت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية تقطف ثمار النصر النهائي في هذا الصراع الطويل . . فاقتحم الجيش المصري بقيادة السلطان الأشرف بن قلاوون (**٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م**) أسوار عكا في ١٧ يونية سنة **١٢٩١ م . . ١٧** جماد ثاني **٦٩٠ هـ** . . ثم سقطت صوروصيدا وبيروت وانطرطروس . . وكان سقوط آخر قلاع الفرسان الداوية الصليبيين في « عتليت » منتصف أغسطس سنة **١٢٩١م** نهاية واحدة من أطول وأعنف جولات الصراع التاريخي والحضاري بين العرب والغرب ! . . وهي الجولة التي جاءت أوربا فيها آمله باحتواء الشرق حضاريا ، وطامعة باستغلاله اقتصاديا ، وساترة هذه الآمال والمطامع برداء الدين وصلبان المسيح عليه السلام ! . .

وفي هذه الجولة أكدت هذه الأمة ، مرة أخرى ، بمؤسسات الفروسية ودولها التي أفرزتها ودفعت بها إلى ساحة الصراع ، أكدت صدق القانون الذي حكم هذا الصراع التاريخي الحضاري ، عبر كل عصوره ، وفي جميع ميادينه ، وهو القانون الذي أصبح قسمة من قسمات شخصية هذه الأمة : **فأمام الخطر ، وفي مواجهة المخاطر ، وتجاه التحدي ، يبحث الانسان العربي ويفتش حتى يبصر سر تفوق الخصم ، فيسعى لامتلاك هذا السر ، ويضيف قوته إلى قوة الحق المنبعثة من عدالة قضيته ، ثم يقتحم ميدان الصراع لينتزع حقه من غاصبيه . . مثبتا ، دائماً وأبداً ، أنه ايجابي ، يجدد ذاته ، ويتجاوز سلبياته أمام المخاطر والتحديات ! . .**